البحوث العلمية

المحـــور الأول:

الحداثة:
المفهوم، الأسس، والمناهج

الحداثة من حيث المصطلح والتأسيس التاريخي

بقلم

د/ محمد جواد مكيكة

جامعة ابن خلدون ـ تيارت

ekika@hotmail.com

المقدمة:

يأتي الحديث عن الحداثة، في سياق تحولات كبرى باتت العلوم الإنسانية تشهدها، وهي تحولات جاءت بعد عدد من التراكمات الفكرية والإبستيمولوجية، التي أضحت تلامس كل العلوم، بما فيها العلوم الإسلامية، وكافة النصوص بما فيها النص المقدّس، فلقد أصبحت الحداثة في ضوء هذه الحركية الواعية بتغيرات السياق وديناميةالرؤى، تمثّل مدا وحضورا قويا في الساحة المعرفية بشكل عام، الأمر الذي جعل تلقفها حتمية لا مناص منها، كل هذا في ظلّ موجة المثاقفة التي أخذت وجوها

عدّة، وسلكت سبلا كثيرة، باتت تمثّل في الأخير، وفي ضوء هذا التداخل، سواء بين القديم والحديث تحديدا، وسواء في كنف هذه التناصية الجارفة، بات كل هذا يمثّل مشروعا فكريا جديدا، يدعو إلى قراءة ثانية لثراثنا العربي القديم، قراءة تسعى لمساءلة الكثير من القضايا والأفكار، وإعادة النظر في عدد من المسائل النقدية والفكرية بشكل عام، لتكون الحداثة تمثيلا حي لصلب هذه الرؤية النقدية، ورهانا تعول عليه كل مقاربة ترفع شعار نقد النقد، وإذا كانت الحداثة في عمقها وفي مرجعيتها الفلسفية الإبستيمولوجية، هي في الواقع دعوة ملحة لهذه القراءة للمنجز العربي القديم، بكل صنوفه ومستوياته، وتحديدا نصوصه، فذلك نابع من إيمان هذا الفكر بأن الحداثة هي قبل كل شيء، رغبة جامحة في تعرية القضايا والغوص فيها، وسعي في الآن ذاته لمبارحة المسطّح من الأفكار والظاهر المصرّح منها، وسفر نحو المضمر واحتفائية بالمجهول، ورفض للغة الواضح، وارتحال نحو الباطن الخفي والمسكوت عنه، هذه هي العوالم التي جعلتها الحداثة هدفا وغاية لها، فالمنجز العربي القديم بكل مجالاته، كان وسيبقى عالما وفضاء ملغزا ومعقّدا، لايزال بحاجة إلى الكشف، إذ لازال يغرينا بالبحث والتنقيب، ومن هنا فإن روح الحداثة وهي تركب صهوة عدد من المناهج النقدية والآليات الإجرائية، جاءت لتكون صورة حية، ونموذجا حقيقيا لطرائق وسبل مواكبة هذا المنجز القديم، وبخاصة منه ما فيه تمثيل للمنظومة التراثية الإسلامية.

فالحداثة وهي تساير الزمان وتتماشى وجغرافية المكان، وتجيب في الآن ذاته عن متطلبات الواقع، باتت بفعل هذه الرؤية التي تزخر بالكثير من التصورات الغربية، اتجاها حداثيا معاصرا، أخذ على عاتقه روح التجديد، وآمن بفلسفة الانفتاح، واقتنع بأن الإبداع الحقيقي هو الذي يصنع السؤال، فصار الاحتفاء بهذا الأخير أهمّ بكثير

من الإجابات المقدمة، هذه الأخيرة التي ستتحول في الأخير، وفي ظل هذا المفهوم مفهوم الحداثة إلى سؤال جديد، أكثر فضاء وسمكا وكثافة عما كان عليه سلفا.

من هنا تأخذ الحداثة بعدا فنيا وجماليا تكون فيه كل نهاية رسما لمعالم بداية جديدة، من هنا تأتي هذه الأوراق، وهي تتخذ من المنهج الوصفي التحليلي مطية لها، لتبحث في الإرهاصات الأولى لمفهوم الحداثة ومرجعياتها الفلسفية وخلفياتها الفكرية المعرفية، ناهيك عن التطرق إلى أهم المناهج الغربية التي باتت الحداثة تعوّل عليها في قراءة الكائن والممكن من المنجز التراثي الإسلامي واقعا وآفاقا، وصولا إلى قراءة تقييمية لموضوع الحداثة، كونها تحوّلت إلى مشروع فكري يثير الكثير من القضايا و الإشكالات.

أولا/ الحداثة ومسارات المصطلح:

تضاربت الآراء وتباينت حول تحديد عام وقطعي للحداثة، الأمر الذي جعل زوايا مقاربتها متداخلا ومتشعّبا، ذلك أن هذه الرؤى أصبحت الآن تنخرط ضمن تجربة معرفية جديدة، أضحى فيها اللاتحديد من أهم المزايا والمؤهلات، التي جعلت مفهوم الحداثة يأخذ صورة متملّصة زئبقية، ولعل هذا التصور من الناحية الفلسفية قد ساهم بشكل كبير في جعل الحداثة تمثل هاجسا وحضورا أقوى في المشهد النقدي والفكري بشكل عام، فقد تداخل مفهوم الحداثة ضمن مساقات متباينة، جمعت بين ما هو علمي وفكري وعقلي وفلسفي، الأمر الذي جعل تحديدها ضمن جهاز معرفي ثابت شيئا بعيد المنال، ولكن يبقى مفهوم التجاوز والتعدي سمة مهمة وجامعة، بل من المفاهيم الأولية التي تقتات منها الحداثة وترتكز عليها، فالحداثة من هذا المنظور صورة واعية لضرورة تجاوز كل ما هو ماضوي قديم، إلا أن أكثر شيء يميّز هذا الفهم، هو أن التجاوز هنا لا يعني الإلغاء أو النفي، بقدر ما هو تجاوز يحمل هذا

الماضي داخل كينونة الحاضر، ليعيد مساءلته وقراءته بآليات ومناهج حداثية، تمكننا من الوقوف على الغائب والمسكوت عنه، داخل هذا الماضي أو القديم الغائر، " كما أنها في الوقت نفسه لخير تعبير أيضا عن قطيعة يحدثها الوعي مع مألوف ما اعتاد عليه، سواء كان ذلك في العلوم أم في الأديان، أم في الفلسفات أم في الآداب أم في الفنون"[1] وبما أن الحداثة في مرجعيتها الفلسفية رغم تعدد مقولاتها، إلاّ أنه تبقى أساس المنطلقات التي بنيت عليها روح الحداثة، ذلك أنها كانت ولازالت خلخلة في مسار الزمن، وانجرافات طوت صفحة الماضي، وانزلاقات اهترأ بفعلها التاريخ، ونوبات شكّلت صدوعا داخل فضاء الزمن وعوالمه، لذا أصبح رهان هذه التحولات والتفجيرات، أقرب ما يكون للمقاربة الشعرية للظواهر، ولعلّ نقطة التّماس والتقاطع بين الفكرتين، هي في قضية الخروج عن المألوف والانزياح عن كل ما هو معتاد متعارف عليه، فالحداثة قطيعة مع المألوف وتجاوز له، ولكنها في صميم مرجعيتها الفلسفية مصالحة مع هذا المألوف أو الماضي في الآن ذاته، ذلك أن الحداثة عندما تقاطع الماضي لا تقاطعه في ذاته، بقدر ما تقاطع السياقات والأطر التي تواجد في ضوئها هذا الماضي، وعندما تتصالح معه من جديد، فذلك كي تعيد موضعته وقولبته ضمن قوالب وسياقات وأطر جديدة، تتغير بها صورة هذا الماضي، أو لنقل تتغير بها صورة هذه الأفكار التي تواجدت واندسّت داخل هذا الماضي، فتجاوز المألوف بحثا وتنقيبا عن اللامألوف، ينبني أساسا على ضرورة استلهام الثاني للأول، ليتّخذ منه مادة خام، سرعان ما يعاد صقلها ومعالجتها معالجة جديدة، داخل سياقات وهيئات وأشكال جديدة، فليست الحداثة مجرّد مفهوم لصيق بما هو سوسيولوجي أو تاريخي فقط [2] بل هي تعدي وتجاوز واختراق، إنها حالة أو

[1] مالكوم برادبري، الحداثة، ترجمة: مؤيد حسن فوزي، مركز الإنماء الحضاري حلب، 2009 ، ص 07

[2] بارة عبد الغني ، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقاربة حوارية في الأصول المعرفية – ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005 ، ص 15

ظاهرة أو بالأحرى " نزعة إنسانية "[3] تشمل كافة المجالات، وتلامس أديم كل المعارف والحقول بتنوعها واختلافها، الأمر الذي يجعل الحداثة إذا ما رمنا أن نلملم شعث مفاهيمها" مفهوما عائما ملغوما، يلغي ذاته باستمرار، بيد أنه استطاع أن يخلق فنيا ردودا متناقضة، وتوترا بين الارتكاس والانبهار، بين الدعاية اللامشروطة، والرفض المبرم"[4] وبهذا تتأكّد لنا مرونة المفهوم وتملّصه، هذه الصفة التي تتآزر معها الخلفيات المعرفية والفلسفية التي انطلق منها مفهوم الحداثة، ولعل أهم هذه الخلفيات، هي تلك التي تعمّدت جعل الحداثة تأخذ هذه الصفة، صفة التغيير والتجديد والاختلاف والتفلّت لتواجه الزمان والمكان معا، ولتكون قادرة على التكيّف مع متطلبات العصر، مهما كانت معطياته وأشكاله لذا، "....يبقى مفهوم الحداثة مستعصيا، لا تكاد تحدد معناه، حتى يظهر لك بمعنى آخر، الحداثة تدخل ضمن المفاهيم المستعصية على التعريف والتحديد الرافض لكلّ نمذجة"[5]

فهي بذلك سعي دؤوب لتحقيق الجدّة ومناشدتها أينما وجدت، وفي جميع الأصعدة والأنشطة الإنسانية من جهة، ومن جهة أخرى مواكبة لكل ما هو مستحدث، ورهان يعوّل بالدرجة الأولى على النقد ونقد النقد بشكل خاص، كل هذا قصد خلق فاعلية إبداعية واعية، ونشاط إنساني لا يتوقف أبدا.

لقد كان للأسطورة حضورها وهيمنتها، ولرجال الدين والكنيسة سلطتهم المطلقة، التي بدّدت قيمة العلم والمعرفة التي ضيّقت الخناق على كل مساعي التحوّل، وتوظيف العقل لفهم الظواهر وشرحها، ما ترتب عنه حجب وطمس للكثير من

[3] شيكر محمد، هايدغر وسؤال الحداثة، إفريقيا الشرق المغرب ، 2006 ، ص 124

[4] المرجع نفسه، ص 09

[5] زيادة رضوان جودت، صدى الحداثة ما بعد الحداثة في زمنها القادم ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 01 ، 2003 ، ص 19

الحقائق العلمية والإنسانية، وتعطيل في الآن ذاته للغة القيم والجمال بشكل عام، " لقد آلت الحداثة الغربية كمشروع ميتافيزيقي إلى نهايتها، وأشرفت على تمامها واستفاء إمكاناتها، حيث صارت ماهية الإنسان تعلو على ذاته إلى معاني الإنسان الأعلى، وأيضا حيث صارت المعرفة تمثالا والعلم حضورا للعالم، كصورة موضوعية إزاء الذات، وحيث صارت التقنية الكونية مهيمنة على الأرض، واستلاء على ماهية العالم"[6]

وبهذا تكون كل السياقات الدينية والفلسفية والتاريخية، قد تظافرت فيما بينها لتكون المطعّم الفعلي واللبنة الأساسية التي كانت سببا لميلاد الحداثة، التي رفضت أفكار ما كان سائدا من أطر وسياقات، وحملت على عاتقها مشروعا تجديديا، يعيد مساءلة الوقائع التاريخية بعين حديثة، ثائرة على التاريخ، نابذة لقيمه وبخاصة ما كان ثابتا قارا في صفحاته، وليصبح الإنسان هذا الحاضر الغائب، يمثّل حضورا فعليا قادرا فيه على الإبداع وتحقيق الريادة، بعد أن حقق ذاته ووجوده وتحرر من قيود وإكراهات الكنيسة ورجال الدين، و ما تمليه عليه من أساطير وأوهام، لينتفل بعد هذه المرحلة إلى سفر جديد نحو عوالم، يبتغي من ورائها اكتشاف المجهول، فلا يقف عند حدود المعتاد أو اليقينيات، بل أصبح يتعامل مع كل الظواهر من منطلق النسبية والشكّ، " وبات العالم منظورا إليه كعلاقات رياضية، وكجملة من الظواهر الموضوعية، التي تنتظم عللا وأسبابا عقلية، وتحددها حتميات فيزيائية لا دخل فيها لقوى متعالية "[7]

فكانت بذلك هذه المعطيات، البداية الفعلية للحداثة من خلال بوابة العلوم التجريبية والفلسفات العقلية، ذات الطابع النسبي التحييني، إذ تجسّدت بهما تلك

[6] شيكر محمد، هايدغر وسؤال الحداثة، ص 139
[7] المرجع نفسه، ص 14

الطفرة و الثورة على القديم الثابت المبتذل، الذي لا يؤمن سوى بالقوى المتعالية والأساطير، التي جعلت الإنسان عبدا لها، وبهذا ارتبطت الحداثة الغربية في فترة نضجها بالفكر التحرّري، والإيديولوجيا المنتفضة، القائمة على لغة ومنطق الرفض، لتدخل في ارتحالات جديدة كلها تنقيب وبحث ومساءلات لا تنتهي، كل هذا للتخلّص من رقابة كل ما هو كائن ثابت ومعياري.

لقد كانت غاية الحداثة ولازالت، تقديم صورة متطوّرة للحياة في جميع الميادين، وتحديثها ووضع الفكر والإبداع بشكل عام يقوم أساسا على رحلة تحتفي باللامألوف، أو كما اصطلح عليه الشكلانيون بمصطلح (التغريب)، لتكون المنظومة الإسلامية القديمة في شقها الأدبي والديني، داخلة ضمن هذه الاهتمامات. لذا أصبحت الحداثة عند كثير من المفكرين والمشتغلين في هذا الحقل تحديدا في الموروث العربي القديم، بمثابة همزة وصل، وجسرا يربط القديم بالحديث، وذلك وفق معادلة مهمة، تقوم وبشكل دقيق في كون الوسيلة الوحيدة كي لا نطوي صفحة الماضي، وبخاصة ونحن نعيش عصرا جديدا وتطورات متسارعة في كل العلوم والمجالات، هو بجعل هذا الماضي قابلا للتكيف مع هذه التحولات، وذلك لا يكون إلا من خلال مساءلة هذا القديم، وقراءته قراءة ثانية جديدة، لا تلغي ما سبق من قراءات ومعارف، وإنما تعيد ترميمه وتعيد بناءه وتشييده، بما يتوافق ويتماشى مع متطلبات العصر، ذلك أن الحداثة " إذا خرجت عن الماضي وتعرّت منه، وجدت نفسها بما أحدثته تسير نحو اللاتجاه "[8] أو اللاقصد الذي بات " ينتج فوضى، تعكس حجم فوضوية وعبثية الوجود، بل هو فن يقوم على إساءة القراءات، إذ يبحث في اللاشكلي واللانهائي واللاقصدي، ضمن عبثية اللعب الحرّ والتفكيك والمصادفة والتغريب،

[8] مالكوم برادبري، الحداثة، ترجمة: مؤيد حسن فوزي، ص 09

بعيدا عن فلسفات أحادية أو ثنائية الأقطاب، وبعيدا عن تراكمات الإرث الإغريقي، فن يقوم على الاختلاف والانفلات من كل مركزية أو نظام..."[9]

ولعل هذا من أهمّ إفرازات الحداثة في شقّها النقدي والجمالي، فإذا كانت الحداثة في حقيقتها تمثّل رغبة جامحة للمساءلة والنقد المفتوحين، أو ما يطلق عليه بالقراءة الثانية، كما جاء في تجربة وهب أحمد رومية للشعر العربي القديم، فإن هذه الرؤية تبقى بعيدة المنال إذا هي لم تستند على آليات فلسفية، تضع كل قراءة في خانة الاتهام، إذ ليس هناك نص بريء، باستثناء القرآن الكريم والسنّة النبوية، فالنصوص خارج هذا الاستثناء تبقى كلها نصوصا وعوالما خاضعة لتقنيات التشظي، واستراتيجيات التفجّر والتبعثر، ومن هنا يكون اللاّقصد واللاّتحديد، صور من الفوضى والعبث شكلا، إلاّ أنه من الداخل عبث مغري وبنّاء، ومثير في الآن ذاته، تسنّه لغة الاختلاف وإيديولوجيا التملّص وروح المتعة والاشتهاء المتبادل بين النّص وقارئه، ويأتي كلّ هذا لطمس منطق الأحادية المحتكر، وابتذالية الثنائية المفرّغة، التي جعلت كل فكر وإبداع خاضعا للسلطة، ولتراكمات الإرث الإغريقي الميتافيزيقي القديم، الذي كان له غاياته المعيارية ومآربه من وراء هذه الأحادية، ومن وراء كل ما هو ثابت قار متحجّر، من هنا تأتي الحداثة في ضوء هذه الحركية، لتأكّد دائما منطق الفراغ والشّك، فالنصوص كانت ولازالت ستبقى نداءات، وما القراءة سوى استجابة لهذه النداءات، فالنصوص ستبقى مفتوحة وستظل القراءات لا نهائية في دلالاتها وما توحيه من معاني، " إنها بتعبير آخر ... كشف عن نقص ما أو عن فراغ ما في القديم، فالحداثة إذن خروج على الأصول"[10] هذه الأصول التي جعلت القراءات القديمة للموروث

[9] علي شناوة آل وادي، النقد الفني والتنظير الجمالي، مؤسسة دار الصادق الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، ط 01، 2011، ص 57 – 58

[10] أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب بيروت، ط 03، 2000، ص 83

الإسلامي مجوّفا ومقعّرا، لأنه ارتبط بالمقدّس والمحظور والثابت، الذي لا يجوز الخروج عنه، لتصطدم هذه الأصول في الأخير بواقع الحداثة الذي كثيرا ما تحصّن بلغة " الانتقالي والعابر"[11] و من هذا المنطلق، أصبح الحديث عن أسس الحداثة الإبستيمولوجية مرتبطا أيّما ارتباط بكل مظاهر الاختلاف والتنوّع، ونبذ فلسفة الواحد والكل والمركز.

ثانيا/ الحداثة والمرجعيات التاريخية:

1- الأساس المعرفي تطلّ علينا " الثورة المعرفية أو المنهجية (الابستيمولوجية)، التي كرّست من طابع اللامباشر ولغة الانفصال، الذي أخذ يطبع العلم المعاصر...فالتفكير العلمي سلسة من القطيعات والانفصالات، وأن التفكير بصفة عامة غزو وفعالية، ونقد وتراجع وإعادة نظر"[12] هذا الانفصال والقطيعة التي باتت تمثّل رهانا تعوّل عليه القراءة الناقدة في الفكر الحداثي، هذه القراءة التي تعيد تقليب الأمور، وتعدد من زوايا النظر، وتنوع من لغة الحواس، كل هذه الاستراتيجيات كي تخرجها من سكونيتها ورتابتها و وثوقيتها المتحجّرة، إلى رحاب الشّك وعوالم الرفض، حيث الواحد المتعدد.

2- الأساس اللغوي: لا تبتعد الثورة اللغوية كثيرا عن الثورة المعرفية، وذلك في سياق الحديث عن أسس الحداثة، هذه الثورة التي " بيّنت أن اللغة منظومة مكتفية بذاتها، وأنها بلا حدود ولا ذات ولا أشياء، فهي منظومة من دون حدود مطلقة "[13]

[11] عمر كوش، أقلمة المفاهيم – تحولات المفهوم في ارتحاله – المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 01 ، 2002 ، ص 95

[12] عبد السلام بنعبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال المغرب، ط 02 ، 2008 ، ص 37

[13] المرجع نفسه، ص 38

هذه اللاحدود التي إليها يردّ كل انفتاح دلالي، ليصبح هذا الانفتاح هو الركيزة التي ترسّخ من مقولة نقد النقد، وهو الذي يدفعنا مع كل قراءة إلى أن نشكّك في القراءة السابقة، فنعيد استنطاق ومساءلة ما توصلنا إليه من نتائج، ونعيد النظر فيما توهمنا أننا قد حققناه كان هو الغاية والمبتغى، فكون اللغة بلا حدود ولا ذات ولا أشياء، هو الذي يزيد من ترسيخ مبدأ أن النصوص نداءات لا تنتهي بزمن، ولا تعترف بجغرافية محدودة الفضاء، وإنما هي عوالم ومسارات متشعّبة لا يغذّيها إلا الوهم والخيال.

3- الأساس الدلالي: وفي نفس الإطار تأتي الثورة الدلالية (السيميولوجية) كي تكون أساسا لا يقلّ أهمية عن الأسس الأخرى، هذا الأساس الذي " أوضح أن كل ما يدلّ سواء، أكان كلاما أم شيئا آخر، وكل ما يعني ويدلّ على معنى، لا يفترض تأويلا لموضوعات تعطي نفسها للتأويل، وإنما يفترض تأويلا لدلائل وعلامات أخرى، فما من موضوع من موضوعات التأويل، إلاّ وقد أوّل من قبل، و كل ما يعني عبارة، عن قناع يغلّف تأويلات سابقة، والعالم هو هذا الفيض من التأويلات... "[14]

لقد أضحى الحديث عن الحداثة انطلاقا من هذه الأسس، حديثا لا ينفكّ عن مسارات ومساقات ومسالك متناصة مع بعضها البعض، ومتداخلة في الخطوط والحدود، ليصبح هذا النسيج المختلط والمتشابك الذي يحتوي فيه القريب البعيد والعكس، رؤية تخلق وتصنع هذا الفائض من المعنى، وهذا الفيض من التأويلات التي أصبحت رديفا للتعدد والاختلاف، ورفضا للمركزية والتوحّد.

4-الأساس التاريخي: هذه المعطيات التي مهّدت لها الثورة التاريخية، هذا الأساس الذي اعتبر لبنة وعتبة أولى، شكّلت في تظافرها روح هذه الآفاق، ورسمت أبعاد كل

[14] المرجع نفسه، ص 38

هذه التطلّعات، ذلك أنها " أخذت توظّف مقولات القطيعة والانفصال والسلاسل والحدود، لتقوم ضدّ تاريخ يستند إلى الفاعلية التركيبية للذات، في محاولة لبناء صيرورة تصون سيادة الوعي، في مأمن أكيد أقلّة عرضة للمخاطر من الأساطير ومنظومات القرابة واللغات والجنس والرغبة "[15]

و من هنا واستنادا على ما سبق نكتشف كيف كان للتأويلية حضورها كمنهج في الفكر الحداثي، وبخاصة في قراءة المنظومة التراثية الإسلامية، وتحديثها بما يتماشى ومتطلبات الفكر العربي المعاصر، وتتّضح هذه العلاقة والفعالية في المنهج التأويلي، الذي ينأى كلية عن الظاهر والمصرّح، ويسعى في المقابل في التأمل في قراءة النصوص بدل الفهم والإدراك، هذه الرؤية (التأمل والتفكير) التي تقوم على أساس أنه ليس هناك نص بريء، وإنما النص كان ولازال عالما ملغزا، وإشكالية في حدّ ذاتها، هذه الأخيرة التي تدعو مع كل قراءة إلى التعمق والإيغال، بعيدا في طبقات النص، وهذا هو واقع الحداثة " فهي تضع الكلّ في لعبة التستّر وجدلية الظهور والاختفاء، بل إنها تجعل ما وراء الستار مجرّد نتيجة، ومفعول للوهم الذي يبعثه فينا الستار، عندما يمنعنا من النظر إليه كستار "[16]

وهكذا تلتقي التأويلية والحداثة، وتتقاطعان في رغبة كل واحد منهما في الحفر وتحقيق التيه، حيث الهيام داخل تخوم النص ومدائنه، ورفض الاعتراف بمنطق النهايات، إذ لا وجود للنهايات أساسا، بل إن كل نهاية ما هي في الواقع إلاّ إعلان وميلاد لبداية جديدة، أكثر انفتاحا وإيغالا من ذي قبل، " فلا غرابة إذن أن ترتبط الطبيعة و الحقيقة عند نيتشه باستعارة المرأة، فكل من هذه الأمور لا يفصح عن طبيعته وحقيقته وجماليته، إلاّ بالتستّر وراء اللغز وعدم اليقين "[17]

[15] المرجع نفسه، ص 38
[16] المرجع نفسه ، ص 99
[17] المرجع نفسه ، ص 99

هذه النقطة التي تبقي النصوص حيّة شاهدة على استراتيجية التحول، ويجعل التأويل ذا طبيعة دينامية متحركة لا تتوقف طاقاتها ولا يخبو وهجها، ذلك أنه مع كل قراءة لاسيما قراءة المنظومة التراثية الإسلامية، تسلك القراءة مسلك الخلق والبعث الجديدين، إذ في كنف هذه القراءة يعاد نسج العلاقات النصيّة من جديد، فيأخذ بذلك نسيج النص وطبقاته تمظهرات عدّة، وبهذه الآلية يعاد بناء الوحدة والانسجام للعالم وللأشياء، في صور جديدة تتسامى عن المألوف المتداول، وفي هذا السياق يقول محمد بنّيس في معرض حديثه عن الكتابة الجديدة :" هذه القاعدة الأولى لكلّ نص يؤسس ويواجه، لا بداية و لا نهاية الكتابة نفي لكلّ سلطة، و بهذا لا يبدأ النص لينتهي، ولكنه ينتهي ليبدأ، و من ثمّ يتجلى النّص فعلا خلاّقا دائم البحث عن سؤاله وانفتاحه، لا يخضع ولا يستسلم ولا يفصح، توّاق إلى اللانهائي واللامحدود، يعشق فوضاه وينجذب لشهوتها "[18]

لذا تعمّدت الحداثة وهي تؤثّث للتأويل وتقاربه وفق ما سبق من معطيات، أن تكون كما قال عبد الإله الصائغ " سباحة ضدّ التيار "[19] ضدّ تيار المتحجّر السلطوي، وضدّ تيار الظاهر المفرّغ والمبتذل، في الواقع كان التداخل القائم بين الحداثة والتأويلية، مبنيا على ضرورة الخروج من سجن اللغة والواقع والسياقات، كل هذا قصد فرض مناخ وفضاء جديدين، تلوح فيهما أبعاد الكرنفالية، وقلب القيم وإضعاف صوت السلطة والاحتكار، ضمن نطاق واحد لا يجوز العدول عنه، وهذا جوهر القراءة الناقدة عند الحداثيين، فهي " قراءة تتعدى التصنيفات، إذ هي تتأملها

[18] محمد بنّس ، حداثة السؤال – الحداثة الشعرية في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 02 ، 1988 ، ص 18

[19] عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية – الحداثة وتحليل النص – المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 01 ، 1999 ، ص 11

بل تتأولها، و تعيد بذلك تعريف المصطلحات والمفاهيم " [20] وبهذا تكون التأويلية التي أفرزتها الحداثة، احتضانا حقيقيا لكم من الأبعاد والمقاربات الجديدة، التي تشقّ طريقها نحو عوالم قرائية جديدة عميقة في حقل (نقد النقد) ذلك أن " نقد النص، يتكشّف عن نقد للحقيقة واستكشاف للكائن، إنه فتح لعلاقة جديدة مع الحقيقة، من شأنها أن تغيّر مفهومنا لها، وأن تبدّل طريقة تعاملنا معها "[21] هذا النقد الذي يبلغ مداه وأوجّه، حينما ينتقد الحقيقة ويحوّلها إلى وهم، ويجعل من استكشاف الكائن، وجعله صهوة يركبها لفهم الممكن غاية جمالية وفنّية، يتغيّر من خلالها الجهاز المفاهيمي للأشياء والظواهر والأفكار، فيتغيّر معها تبعا لطرق التعامل، وعلى هذا تبقى القراءة التأويلية تعبيرا حيّا عن كمّ من التساؤلات التي تسعى لاستكشاف لغة النّص العربي القديم من جهة، وفتح لآفاق تجريبية تقع ضمن خانة الممارسات الكتابية الجديدة من جهة أخرى، وابتكار لطرق تعبير أخرى، تكون في الأخير تمثيلا حيا لهذه المسارات والمسالك، التي ترقى في الأخير لمستوى هذه التساؤلات، إلاّ أن جماع هذا كلّه يبقى مرهونا بنظرة شخصية فريدة للإنسان والكون عموما.[22]

وعلى هذا تصبح التساؤلات هي الرهان الذي تعوّل عليه الحداثة، قصد الوصول إلى الغائر في طبقات النص والمسكوت عنه، حيث جماليات الغياب والفراغ، ذلك أن للنص العربي القديم اختلافاته واختلالاته وتوتراته ونوباته، التي تدعو إلى التأمّل والتفكّر، أكثر ممّا تدعو إلى الفهم والإدراك، فللنص أسراره وفجواته وغوامضه، كما

[20] علي حرب ، التأويل والحقيقة (قراءات تأويلية في الثقافة العربية)، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 02 ، 1995 ، ص 17

[21] علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب، ط 03 ، 2002 ، ص 13

[22] أدونيس ، بيان الحداثة من مجلّة مواقف، ع 36 ، 1980 ، ص 142 ، نقلا عن، خليل أبو جهجهة، الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع والتنظير والنقد، دار الفكر اللبناني، ط 01 ، 1995 ، ص 17 بتصرّف

أن للكلمة ظلّها وأصداؤها، كل هذا يبقى رهين حضور لغة التساؤلات وتهافتها على النّص، " فالتساؤل في حدّ ذاته قد تتولّد عنه تساؤلات جديدة ومتنوّعة، إذن فالتساؤل أعمق و أشمل من السؤال، ولا يحتاج إلى إجابات، لأنّ التساؤل قد تثيره الصّدمة و الرغبة في التغيير الثقافي، لثقافة يسيطر عليها الجمود "[23] هذا الجمود الذي تسعى الحداثة إلى انتهاكه وخلخلته وتفكيكه، وجعله يدخل وينخرط ضمن تجربة جديدة هي تجربة الفوضى، التي كانت وزالت تبعث إلى التعدّد والاختلاف، والخروج من اعتباطية تفسير الظواهر، وصنمية النموذج .

الخاتمة

1. الحداثة تتويج حي لتراكمات معرفية متعاقبة، وهي ضوء هذه الإرهاصات المتتالية تحقيق لأبعاد تناصية وتداخلات، أفضت في آخر المطاف إلى نشوء وعي فكري أضحى يقرّ بمبدأ الدينامية ونسق التحوّل والاستمرارية، الذي بات يمدّ الحداثة بآليات جديدة تُقارب بها النصوص التراثية مقاربة جديدة، تحول بينها وبين لغة الثابت والمكدّس

2. الحداثة رحلة مساءلات لا تنتهي، وذلك انطلاقا من مبدأ الاحتفائية بالمجهول ومبارحة المعلوم، ذلك أن الأول صورة من صور الإنتاج، بخلاف الثاني الذي لا يتجاوز حدود المستهلك والمتحجّر

3. الحداثة رغم غياب تحديد عام وقطعي لمفهومها، إلاّ أن الشيء المؤكّد هو صفة التجاوز والتّعدي التي تمثّل دعامة ركيزة من دعائمها، ويندرج تحت ذلك تجاوز الماضي الذي لا يعني الإلغاء أو النفي، وإنّما المراد هو حمله داخل قوالب الحاضر لنعيد

[23] حورية الخمليشي، الكتابة والأجناس شعرية الانفتاح في الشعر العربي الحديث، دار التنوير لبنان، ط 01 ، 2014، ص 74

مقاربته واستنطاقه ضمن آليات إجرائية جديدة، تمكّننا من الوقوف عند جماليات المسكوت عنه والمضمر فيه، فالحداثة من هذا المنظور باتت تجاوزا للمألوف وبحثا في الآن ذاته عن مواطن اللامألوف، وهي والحالة هذه تستلهم من الأول لتحقق الثاني، وذلك من خلال استراتيجية الخلخلة وخلق الصدوع وتفكيك البناء

4. الحداثة مفهوم زئبقي شرود متملّص، يلغي ذاته باستمرار، إلاّ أنه إلغاء يرام من ورائه الإثبات، وانفتاح يعقبه تأجيل، فالحداثة من هذا المنظور رفض دائم لكل ما هو قطعي، وبحث دؤوب لكل ما يمثّل بؤرة من بؤر التوتّر والاهتزاز، الأمر الذي يجعل المعاني دائما في انزلاق وانجراف لا نهائي

5 . الحداثة عبر تنوّع مساراتها التاريخية، وأسسها الفلسفية والنقدية المتداخلة، رفض صريح لسجن اللغة، باعتبارها نظاما خاضعا لمنطق نسقي قار ومعياري لا يمكن مقاربته إلاّ من الداخل، وبهذا تكون الحداثة قضاء على كل صوت يدّعي السلطة

6 . تراهن الحداثة بشكل كبير على الأبعاد التأويلية للنص الأدبي، وتعتبر القراءة التأويلية هي النافذة التي تقلب فيها الموازين، فتتحول الحقيقة إلى وهم ويصبح الاحتفاء بالمجهول أهمّ و أولى من البحث عن المعلوم، ويبقى مدار هذا كلّه وجوهره هو النظرة الجديدة التي باتت الحداثة تطرحها لتقلّب في الماضي، وترتحل في مدائنه وتتيه في تخومه، قائمة على فلسفة السؤال الذي لا يلد سوى سؤال آخر جديد، أكبر فضاء وسمكا و تفاعلا من الذي قبله، وهنا تتحقق المتعة التي هي غاية كل ناقد متطلّع

قائمة المراجع

1. أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب بيروت، ط 03 ، 2000
2. بارة عبد الغني ، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقاربة حوارية في الأصول المعرفية – ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005

3. حورية الخمليشي، الكتابة والأجناس شعرية الانفتاح في الشعر العربي الحديث، دار التنوير لبنان، ط 01 ، 2014

4. خليل أبو جهجهة، الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع والتنظير والنقد، دار الفكر اللبناني، ط 01 ، 1995

5. زيادة رضوان جودت، صدى الحداثة ما بعد الحداثة في زمنها القادم ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 01 ، 2003

6. شيكر محمد، هايدغر وسؤال الحداثة، إفريقيا الشرق المغرب ، 2006

7. عبد الإله الصائغ، الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية – الحداثة وتحليل النص – المركزالثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 01 ، 1999

8. عبد السلام بنعبد العالي، ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال للنشر والتوزيع المغرب، ط 02 ، 2008

9. علي حرب ، التأويل والحقيقة (قراءات تأويلية في الثقافة العربية)، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 02 ، 1995

10. علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب، ط 03 ، 2002

11. علي شناوة آل وادي، النقد الفني والتنظير الجمالي، مؤسسة دار الصادق الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، ط 01 ، 2011

12. عمر كوش، أقلمة المفاهيم – تحولات المفهوم في ارتحاله – المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 01 ، 2002

13. مالكوم برادبري، الحداثة، ترجمة: مؤيد حسن فوزي، مركز الإنماء الحضاري حلب، 2009

14. محمد بنّس ، حداثة السؤال – الحداثة الشعرية في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، ط 02 ، 1988 .